تعليمية النحو من التقعيد إلى التعقيد
قراءة تأصيلية في التراث العربي

د:بلخير ارفيس
جامعة المسيلة

لقد كان النحو وليد الدراسات المتعلقة بالقرآن ،ففي بداية أمره رام حماية القرآن من اللحن والتصحيف والتحريف خصوصا بعد اتصال العرب بغيرهم من العجم، ولهذا بدأ بضبط أواخر الكلم في الآيات بالنقط الذي اهتدى إليه أبو الأسود الدؤلي، ثم أخذت دراساته تتدرج وتتسع موضوعاتها وأصبح النحو هدفا في ذاته بعد أن كان وسيلة، وقد عرف النحو أوج تطوره على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه، ومن أتى بعدهم قعد هذه الدراسة وأحكم أصولها متأثرا بالمنطق والفلسفة اليونانيين وما يحملانه من أقيسة ومصطلحات ، وهو ما جعل النحو ينحرف عن هدفه ويفقد حيويته في تأدية وظيفته ليتحول إلى درس في الجدل يتبارز فيه النحاة ليظهر كل منهم قدراته العقلية بما يعرض لهم من مشكلات

بداية ينبغي أن نقر بأن النحو العربي قد كان وليد التفكير في قراءة القرآن والدليل على ذلك أن النحاة الأوائل كانوا من القراء أو من الذين عنوا بالدراسات القرآنية ومنهم عمرو بن العلاء وعلي بن حمزة الكسائي ويحيى بن يزيد الفراء والخليل بن أحمد الفراهيدي، وقد فتح هؤلاء بجهدهم بابين :أحدهما يتعلق بحماية القرآن والآخر ببناء قواعد وأسس اللغة العربية وهو ما سيسهل على غير العرب تعلمها.

إن أهم حدث نحوي هو ما ألفه سيبويه تلميذ الخليل من خلال عمله الضخم الذي سماه الكتاب أدرج فيه أراء أستاذه بعد تنسيقها وتبويبها مع آراء شيوخه الآخرين و مبديا رأيه الخاص فيها، وازدادت أهمية النحو عندما استقلت دراسته عن الدراسات القرآنية وأصبح ثقافة خاصة مستقلة وإقبال الدارسين عليه من كل حدب وصوب

لقد استطاع النحو أن يفرض نفسه فجعل حلقا خاصة به يجلس إليها النحاة والأدباء والشعراء ثم ازداد أمره لأن يجاري الشعراء ويقارعهم ولا أدل على ذلك من "أنه قد دار حوار بين الخليل بن أحمد ومحمد بن مناذر الشاعر البصري كلام فقال له الخليل :إنما أنتم-معشر الشعراء- تبع لي وأنا سكان السفينة إن قرضتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم"[1]

لقد كان النحو العربي يرمي إلى أمرين:

أولا: كيفية تأليف الجمل وما يجب أن تكون عليه بمفردها أو مع غيرها

الثاني: ضبط أواخر الكلمات طبقا لما تقتضيه قواعد الإعراب التي كشفوها.

ولعل هذا الأمر هو ما نص عليه المتقدمون فسيبويه يفتتح كتابه "هذا باب علم ما الكلم من العربية [2] قسم فيه الكلام إلى اسم وفعل وحرف وباب "مجاري أواخر الكلم من العربية"[3]وهي النصب والجر والرفع والجزم وبين مواقعها وما ينوب عنها، ويقول أيضا "هذا باب الفاعل الذي يتعدى فعله إلى مفعول ،وذلك قولك: ضرب عبد الله زيدا ،فعبد الله ارتفع وشغلت ضرب به وانتصب زيد لأنه مفعول به تعدى إليه فعل الفاعل وإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك ضرب زيدا عبد الله"[4]

أما **أبو عبيدة** فقد حاول أن يقتفي أثر سيبويه سالكا مسلكا آخر يتجاوز علل الإعراب إلى قوانين العبارة العربية، فألف كتابه "مجاز القرآن" محاولا توضيح خصائص الجملة من تقديم وتأخير وحذف وإضمار وغيرها من وجوه التعبير الأخرى، لكن كتابه لم يعر له اهتمام لوجود كتاب سيبويه حتى أن أحد النحاة قال: من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي، وأكثر من ذلك قول الفراء: "لو حمل إلي أبو عبيدة لضربته عشرين في كتاب المجاز"ص23 ورغم هذا فإن ما يحمد لأبي عبيدة اعتماده في تفسير القرآن وإظهار إعجازه على اللغة وليس على الرواية كما يفعل أصحاب التفسير.

لقد تأثر **ابن قتيبة** بأبي عبيدة آخذا منه استعماله الواسع لكلمة المجاز وكان هدفه محاولة تفنيد مزاعم الملاحدة وإبطال دعواهم وسن سر الإعجاز في النظم القرآني حيث يقول" وإنما يعرف فضل العرب من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتتانها بالأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الامم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب خصيص من الله"[5]

كما نجده يمتدح الإعراب والنظم مبينا دورهما ومدى إمكانية تأثيرهما فيقول في"باب ذكر العرب وما خصهم به من المعارضة والبيان واتساع المجاز، ولها الإعراب الذي يجعله الله وسيلة لكلامها، وحلية لنظمها، وفارقا في بعض الأحوال بين الكلاميين المتكافئين والمعنيين المختلفين ، كالفاعل والمفعول، لاي فرق بينهما إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب، ولو أن قائلا قال: هذا قاتل أخي بالتنوين وقال آخر هذا قاتل أخي بالإضافة لدل التنوين على أنه لم يقتله ودل حذف التنوين على أنه قاتله...أفما ترى الإعراب كيف فرق بين هذين المعنيين"[6]

إن من يقرأ هذه الأعمال الثلاثة سيقر صراحة بوجود بصمات الفلسفة اليونانية باعتماد المنطق منهجا، والعقل ملجأ، ومثال ذلك عند سيبويه "باب ما قيس من المعتل من بنات الياء والواو ،ولم يجئ في الكلام إلا نظيره من غير المعتل يعرضه في أربع صفحات، وباب" ما قيس من المضاعف الذي عينه ولامه من موضع ولم يجئ في الكلام إلا نظيره من غيره تقول في فعل من رددت ردد وتقول في فعلان رددان وفعلان واحد رددان وتقول في فعلول في ردد رددود و افعيل رددير"ولا يتوقف سيبويه عند هذا الحد بل يطرح كل صيغة ممكنة يفرضها منطقه ويقبلها عقله

إن هذا التقعيد وهذا التعقيد لازم وضروري لأول كاتب في علم النحو، لكن الذين أتوا بعده قد غالوا كثيرا في التفسيرات المنطقية خارجين بذلك عن الغرض الأصلي، فمثلا "دخل أبو مسلم عبد الرحمان صاحب الدولة وكان مؤدبا لعبد الملك بن مروان قبل أن يرتفع حاله إلى معاذ بن مسلم الهراء النحوي فسمع معاذا يناظر رجلا في النحو فقال لمعاذ: كيف تقول من "تؤزهم أزا"مريم83 يا فاعل افعل، وصلها بيا فاعل افعل من "وإذا الموءودة سئلت"التكوير8فأجابه الرجل، فسمع كلاما لم يعرفه، فقام من عندهم وأنشأ يقول:

قد كان أخذهم في النحو يعجبني
حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاما لست أعرفه
كأنه زجل الغراب والبوم
تركت نحوهم والله يعصمني
من التوحم في تلك الجراثيم

فقال معاذ: عالجتها أمرا حتى إذا
شبت ولم تحكم أبا جادها
سميت من يبصرها جاهلا
يصدرها من بعد إيرادها"[7]

إذا هذا الكلام هو دليل انحراف النحو عن أصله واشتغاله بأشياء لم تكن يوما من صميمه، فأصبح قوالب منطقية تراعى فيها الصنعة اللفظية كأنها زجل الغراب والبوم على حد ما قاله الرجل

ومنه أيضا" قيل أن أعرابيا وقف على مجلس الأخفش211هـ فسمع كلامهم في النحو فحار وعجب ، فقال له الأخفش، ما تسمع يا أخا العرب ؟قال: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا ما ليس في كلامنا"[8]

وما يحز في النفس ويجعلها تأسف على المنحى الذي أخذه النحو ما يصرح به أعلامه أنفسهم من اتخاذ التعقيد منهجا، حيث روى الجاحظ فقال: "قلت لأبي الأحسن الأخفش، أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها؟ وما لنا نفهم بعضها ، ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ قال :أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعوني إليه، قلت حاجتهم إلي فيها، وإنما كانت غايتي المقالة، فأنا أضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس مالم يفهموا....ولكن ما بال إبراهيم النظام، وفلان و فلان، يكتبون الكتب لله بزعمهم ثم يأخذها مثلي موافقته مجادلة وخصومة أو حسن نظرة وشد عنايته ولا نفهم أكثرها"[9]

وانتقلت عدوى الأخفش إلى غيره فهذا المازني249هـ يقفو أثره ويجنح إلى التعقيد باعتماد المنطق والفلسفة فيروى أنه "قرأ على رجل كتاب سيبويه مدة طويلة، فلما بلغ آخره ،قال الرجل :أما أنت فجزاك الله خيرا، وأما أنا فما فهمت حرفا"[10]

وإذا كان الوفاء محمودا فالأولى أن يكون التلميذ وفيا لمنهج أستاذه، وهو ما كان حقا مع المبرد الذي تفلسف في النحو إلى الحد الذي كاد أن يخرجه من صلبه فيقول مثلا عن الأسماء والأفعال والحروف "أجيز أن أسميها كلها أسماء، لأن قولنا : زيد كلمة دالة على مسمى، وقولنا قام كلمة دالة على حدث في زمان، وقولنا: إن، لم، من وما أشبه ذلك كلمة دالة على معنى، وكل واحد اسم لما دل عليه، ويجوز أن أسميها كلها حروفا، وكأنها قطع الكلام متحرفة، ويجوز أن أسميها أفعالا على غير طريقة أوضاع النحو بل على الحقيقة التي قدمنا ذكرها"[11]

لقد أدى هذا الاتجاه إلى الإيغال في الاعتداد بالمنطق والفلسفة إلى اعتبارهم أن النحو والمنطق لا ينفصلان فالنحو منطق عربي، والمنطق نحو عقلي لذلك كانوا يعتقدون "أن البحث عن المنطق قد يرمي بك إلى جانب النحو، والبحث عن النحو قد يرمي بك إلى جانب المنطق، ولولا أن الكمال غير مستطاع لكان يجب أن يكون المنطقي نحويا والنحوي منطقيا"[12]

ويشهد على ذلك صراع السيرافي368هـ وهو من النحاة البصريين مع متى المنطقي في مناظرات طويلة انتهت بانتصار السيرافي

كما أن الرماني376 لم يشذ عن القاعدة حيث يقول عنه أبو علي الفارسي 377هـ"إن كان النحو ما يقوله أبو لحسن الرماني فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما تقوله فليس معه منه شيء"[13]

كما قال بعض أهل الأدب "كنا نحضر عند ثلاث مشايخ من النحويين، فمنهم من لا نفهم من كلامه شيئا، ومنهم من نفهم بعض كلامه دون البعض، ومنهم من نفهم جميع كلامه، فأما من لا نفهم من كلامه شئ فأبو الحسن الرماني، وأما من نفهم بعض كلامه دون البعض فأبو علي الفارسي، وأما من نفهم جميع كلامه فأبو سعيد السيرافي"[14]

وما زاد الطين بلة ظهور العامل في النحو في مقابل العلة في الفلسفة ورأى النحاة أن علامات الإعراب تتغير بحسب مالها من معان إعرابية، ففكر فيما اقتضى هذه المعاني، وما اقتضى هذه الآثار، فسلكوا سبيل المتكلمين في إرجاع الظواهر العقلية إلى عللها وأسبابها التي اقتضتها، فكان ذلك كما يقول بعض الباحثين بداية القول بالعوامل[15]

والغريب في الأمر أن نظرية العامل أصبحت وكأنها لب النحو فابن جني392في كتابه الخصائص"يعرض فيه للعلة كأنها هي المعنية من دراسة النحو،ويكون للبحث في العلة الغلبة على أبواب كتابه، فيستوعب منه جزءا كبيرا، ويستنفذ من تفكيره جانبا كبيرا، فقد عقد فيه بابا ذكر فيه الفرق بين العلة الموجبة والعلة المجوزة، وبابا في تعارض العلل وبابا في العلة وعلة العلة، وبابا في حكم المعلول بعلتين، وبابا راح يرد فيه على من اعتقد فساد علل النحويين لضعفه هو في نفسه عن أحكام العلة إلى غير ذلك من الأبواب التي لو قرأتها لرأيتك تواجه أبوابا في فصول الفلسفة لا أصول النحو كل ما فيها ينبني على النظر الفلسفي المجرد"[16]

لقد كان حريا بالنحو أن لا يحيد عن الطريق التي رسمها والأهداف التي وضعها بادئ أمرها بأن يبحث في بنية الجملة مفردة كانت أو مع أخواتها أما أن يغوص في أعماق المنطق ويتخذه طريقا فهذا ما جعل الناس ينفرون منه، فإذا كان البحث عن العلة فهذا أمر مقبول بحكم أن التعليل ضروري في كل شيء أما أن تعلل علة ثم تقوم بتعليل التعليل فهذا مالا يقدر عليه إلا من أوتي باعا كبيرا في الفكر والجدل ولهذا نجد ابن سنان يقول:" يجب اتباعهم- يقصد النحاة- فيما يحكمونه عن العرب ويروونه...فأما طريقة التعليل فإن النظر إذا سلط على ما يعلل به النحويون لم يثبت معه إلا الفذ الفرد، بل ولا يثبت شيء البتة، ولذلك كان المصيب منه المحصل من يقول: هكذا قالت العرب من غير زيادة على ذلك، فربما اعتذر لهم المعتذر بأن عللهم التي ذكروها وأوردوها لتصير صناعة ورياضة ويتدرب بها المتعلم، ويقوى بتأملها المبتدئ، فإما أن يكون ذلك جاريا على قانون التعليل الصحيح والقياس السليم، فذلك بعيد لا يكاد يذهب إليه محصل"[17]

إن استفحال هذا الداء لم يجعل الناس العادين يزهدون في النحو فحسب، بل يتعدى الأمر أولئك المختصين في فروع أخرى، كالفقهاء والمحدثين وغيرهم، إذ اعتبروا جهلهم بالنحو أمرا عاديا فابن فارس يقول:" وقد كان الناس قديما يتجنبون اللحن فيما يكتبونه و يقرؤونه اجتنابهم لبعض الذنوب، وأما الآن فقد تجوزوا حتى رأينا المحدث يحدث فيلحن، والفقيه يؤلف فيلحن فإذا نبها قالا: ما ندري ما لإعراب وإنما نحن محدثون وفقهاء فهما يسران بما يساء به اللبيب"[18]

وأكثر من ذلك أن يصيب هذا الداء المختصين في النحو أنفسهم، فبغض النظر عن قطرب ومنهجه ورؤيته للنحو رغم أنه كان أحد تلاميذ سيبويه، فإن رأيه يعد شاذا لا يعتد به، ولكن أن نرى أبا العباس ثعلب290 هـ وهو من علماء

النحو البارزين يحدثه أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد324هت فيقول:" كنت عند أبي العباس ثعلب فقال: يا أبا بكر اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا واشتغل أهل الحديث بالحديث ففازوا واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو ، فليت شعري ما يكون حالي في الآخرة...فانصرفت من عنده فرأيت تلك الليلة النبي ص في المنام فقال لي: أقرئ أبا العباس عني السلام، وقل له: أنت صاحب العلم المستطيل"[19]

إن هذا القول ينبئ عن الضجر الذي لحق حتى علماء النحو أنفسهم ، وأكثر من هذا كله أن يصبح النحو مذهبا نقديا وميزانا للشعر فثارت الخصومة بين الشعراء والنحويين وهو ما سنذكره في حينه

وما يهمنا الموقف الذي اتخذه عبد القاهر من هذه القضية ثم كيف استفاد منه ليجعله أساس النظم وقوامه الذي لا غنى له عنه ولا مفر له منه.

الهوامش

الأصفهاني:أبو الفرج علي بن الحسن ،الأغاني ،تح:إ حسان عباس ،دار صادر، بيروت الأغاني 1ج16/17

2سيبويه،الكتاب ج1ص12

3نفسه ج1ص13

4نفسه ج1ص34

5ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ج1 ص12

6ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ج1 ص14

الزبيدي ،طبقات النجويين واللغويين، تح:محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار المعارف ص،136،الزجاجي أبو القاسم عبد الرحمان،، مجالس العلماء تح:عبد السلام 7هارون ،الكويت،1984، ص190

8القفطي ،إنباه الرواة على أنباء النحاةج2ص42

9الجاحظ،الحيوان ج1ص91،92

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تح: إحسان عباس ،دار صادر 10،بيروت ج1ص285.286.

الزجاج:أبو القاسم، الإيضاح في علل النحو ،تح: مازن المبارك ،دار

11النفائس،بيروت،ط3(1399.1979)ص44

12ينظر:التوحيدي،المقابسات ص 86 -87

محمد الطنطاوي ،نشأة النحو ،دار

13المعارف،القاهرة،ط2،ص202

14ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء. ص234

ينظر:إبراهيم مصطفى، إحياء النحو لجنة التأليف

15والنشر ،القاهرة،ط2،(1413.1992) ،ص22

مهدي المخزومي ،مدرسة الكوفة ،مطبعة

16الحلبي،ط2(1377،1958)ص 291

17الخفاجي،سر الفصاحة33

ابن فارس: أبو الحسين أحمد، الصاحبي في فقه اللغة العربية ،تحقيق أحمد حسن بسج ،دار الكتب

18العلمية،بيروت،ط1،(1418،1997)ص35

19ياقوت الحموي، معجم الأدباء ج 2ص515